المشروع النهضوي الجزائري.. المعوقات والمحركات

د. سرحان بن خميس
جامعة باتنة

ملخص:
في بعض منعطفات التاريخ لا بدّ لشعب من الشعوب أن يلتفت لمديونيته الحضارية، محاولا كشف معوقات نهوضه، وما يزيل تلك المعوقات عن طريقه. فمن منا لا يشعر بالرغبة في النهوض بمجتمعنا الجزائري وإصلاح ما أفسدته أيدينا، إنه مطلب الكل، مطلب جيل الثورة ومطلب جيل الاستقلال، ومطلب الأجيال اللاحقة، ولكن لكلّ رغبة في التاريخ محركات ومعوّقات، فما معوّقات المشروع النهضوي الجزائري؟ وما محركاته للخروج من أزماته المختلفة؟ لن يتحرك صاحب مشروع النهضة الجزائري من فراغ إن استوعب معوقات ومحركات التاريخ الجزائري منذ البدايات الأولى لتشكل الدولة القطرية الجزائرية.

هذا الاستيعاب لا بد أن يخضع لمحددات تنتمي إلى المستقبل أكثر من انتمائها للماضي، حيث إن النظرة المستقبلية للأمور هي من يشكل تلك الإرادة الجزائرية الحقّة للتحرك باتجاه الالتحاق بالركب الحضاري للأمم. وهذا ما دفع أصحاب المشاريع النهضوية قديما وحديثا لتبني ميكانيزمات للنهوض كان عليها الدفع التحريكي وفق اقتضاء غيبي تاريخي ومعرفي، نجد أثره في المراحل الزمنية المختلفة لهذا المشروع النهضوي؛ إذ يشكل التحقيب الزمني (الماضي-الحاضر-المستقبل) إطارا استيعابيا لنماذج تاريخية متنوعة تلخص مختلف المعوقات التي واجهت وتواجه المشروع النهضوي الجزائري.

الكلمات المفتاحية: النهضة- الركب الحضاري- المستقبل- المعوقات...

Abstract :
At some junctures in history, a people must pay attention to its cultural indebtedness, attempting to uncover the obstacles to its rise, and to remove those obstacles through it. Who among us does not feel the desire to promote our Algerian society and reform what has been corrupted by our hands? And what drives him out of his various crises? The owner of the Algerian Renaissance project will not move out of the blue if he grasped the obstacles and motives of Algerian history from the very beginning to form the Algerian Qatari state.

This assimilation must be subject to determinants that belong to the future rather than to the past. This is what prompted the entrepreneurs of the renaissance, old and new, to adopt mechanisms for the advancement, which had to be motivated according to historical and cognitive metaphysics. That faced and faced the Algerian Renaissance project.

مقدمة:

إن القلق إزاء نهضة شعب من الشعوب ظاهرة موصولة بسالف الأمم والأزمان، ومحاولات الإنسان الجزائري النهوض بشتى السبل ظاهرة تاريخية حقة، غير أنه من سمات هذا العصر الأساسية التفكير في مشروع للنهضة، إذ لم يعد الإنسان في عصرنا ينظر إلى النهضة على أنها ذلك المجهول الذي ليس للإنسان إزاءه إلا القعود والانتظار، إذ ما حاجتنا إلى بذل الجهد في مجال قدّره الله و حدّده، و نحن الضعفاء أمام قدرته لا نملك حولا ولا جهدا لتغيير ما خطه القدر؟ أم أنه الفرار من مقتضيات العهد والأمانة، وفرار من واجبات الاستخلاف والتسخير خوفا من الابتلاء؟

صحيح أنه لا أحد كان يتوقع ما حدث بالشكل الذي حدث و يحدث به، لذلك فما الفائدة من الحديث عن المشروع النهضوي الجزائري؟ وما الذي يبرر مشروعية مثل هذا الحديث عن موضوع حساس كمعوقات ومحركات المشروع.

أما أهمية هذا البحث فتبرز من جانبين، أولهما: من حيث موضوعه، وثانيهما: من حيث منهجه.

أولا- فمن حيث الموضوع: أرى أن فهم حقيقة المشروع النهضوي، ومعوقاته ومحركاته، ضرورة لابد منها لكي ندرك -إدراكا سليما- المسار الذي رسمته أمتنا الجزائرية لنفسها في الماضي والحاضر عبر المشاريع المختلفة للنهوض، والمسار الذي سترسمه الأمة لنفسها في المستقبل عبر محركات مشروع نهضوي مستقبلي.

ثانيا- أما من حيث المنهج: فإن هذا البحث دراسة نقدية تحليلية تنطلق من الواقع المعيش أولا، ثم من التصور المستقبلي ثانيا، وتصنع مضامينها عبرهما وتبني نتائجها من خلال ذلك.

أما المنهج المتبع في البحث فإن هذه الدراسة تصب في إطار الدراسة المستقبلية لمشروع النهضة الجزائري وذلك يقتضي منهجا وصفيا تحليليا.

وصفيا لرصد بعض المظاهر والنماذج النهضوية، من عصر النهضة العربية إلى الوقت الراهن.

تحليليا لتفكيك تلك المظاهر والنماذج إلى عناصرها الجزئية لاستبيان ملامح النهضة من خلالها، واستشراف محركات المشروع النهضوي، وبالإضافة إلى ذلك لم أستغن عن النقد البناء الذي لا يبخس الناس أشياءهم.

هذا ما يحاول البحث عرضه وتحقيقه من خلال منهجه، وبالقدر الذي تسمح به المساحة المتاحة من خلال ثلاثة مباحث متكاملة.

المبحث الأول: الدراسة المفاهيمية.

أولا: مفهوم المشروع النهضوي.

من دون الولوج إلى جدل التعريفات اللغوية والاصطلاحات فمفهوم المشروع النهضوي الجزائري في هذه الدراسة هو: عملية ترقية واقع المجتمع الجزائري في شتى المجالات، من خلال تفاعله مع جدل المرجعية العليا، و كذا جدل العقل، أي إن المشروع النهضوي

الجزائري يتعلق بتلك العملية التفاعلية المستمرة، بين الوحي المعصوم والعقل الجزائري وواقع المجتمع الجزائري.

وباستصحاب هذا التعريف، يجب أن يوضع في الحسبان أن التاريخ لا يسير حسب توقع من التوقعات أو استشراف من الاستشرافات[1]، ومع ذلك فإن عدم القابلية للتوقع الدقيق لا يعني استحالة التفسير، بمعنى نستطيع أن نتبين كيف أن وقوع بعض الأحداث كان ممكنا لأن الواقع كان محملا بها، لأنه لا مصادفة في الكون، بل هي أسباب يمكن التعرف إليها وضبطها، ذلك أنْ لا شيء يقع في المستقبل لم يكن له أساس في الماضي و الحاضر[1].

إذا وجدنا ما يبرر الحديث عن مشروع نهضوي جزائري، فثمة تساؤلات جوهرية حول معوقات ومحركات هذا المشروع، وكذا وجهته، فمن هنا إذا تكلّمنا عن مشروع نهضوي جزائري فإنّه ينبغي النّظر إلى هذا المشروع من خلال ما به يتحدّد ويتخصّص أي مفهوم المعوقات والمحركات، فما مفهومها؟

ثانيا: المعوقات:

وتتمثل بمجموعة القضايا الكبرى التي تواجه المشروع النهضوي الجزائري ويأتي على رأسها قضية الفشل التربوي، وقضية الفشل التنموي.

وإذا كان البعض ينظر إلى أن التربية والتنمية يمكن أن تتحققا، إلا أن التجارب التربوية والإنمائية الجزائرية على امتداد نحو نصف قرن، أكدت أن التربية والتنمية الجزائريتين هما ثنائية عرجاء على الرغم من توفيرها بعض مظاهر الرخاء، وتأمين البنى الأساسية.

ثالثا: المحركات

وتتمثل بمجموعة المحددات الماضية والحاضرة والمستقبلية، التي يكون عليها الدفع التحريكي للمشروع النهضوي الجزائري نحو الرقي في مختلف المجالات.

فإذا تمكن المفكر الجزائري من إدراك جيد لتلك العملية التفاعلية و اتجاه تطورها أو على الأقل الاتجاهات الممكنة لها، أمكن له تبيّن محركات مشروعه النهضوي، و في هذا لا بد من التنبيه إلى أن الحديث عن مشروع نهضوي جزائري يكون مجرد مغامرة خطابية إذا هو لم يستند إلى ثلاث ركائز أساسية: الإدراك الجيد للواقع التربوي والتنموي الجزائري الراهن والماضي، الإدراك العلمي والمنهجي للوحي، وتوافر إرادة الإصلاح بالشكل الذي ينبغي أن يكون.

هي ثلاثية تتفاعل مع بعضها كل منها شرط للأخرى، فإرادة الإصلاح التربوي والتنموي شرط في اتجاه الإدراك السليم للواقع التربوي والتنموي الجزائري و مفاصله، والإدراك الجيد لمفاصل الواقع التربوي والتنموي الجزائري الراهن و الماضي شرط للإدراك العلمي والمنهجي للوحي، و هو شرط لنجاح إرادة الإصلاح و هكذا ...الخ.

وتصور مثل هذا التفاعل في عصرنا هو بمثابة تحديد لنموذج[1] إصلاحي مستقبلي، حيث يخضع هذا النموذج لخصائص الواقع التربوي والتنموي الجزائري المعاصر و يستجيب لحاجاته، ولا ندع أنه بإمكاننا بلورته ولكن حَسْبنا الدعوة إلى التجاوز من بعد الاستيعاب، حيث لا نترك للآخر أن يحدِّد لنا واقعنا التربوي والتنموي و يشكل لنا بدائل المستقبل، و

المهم ليس النظر إلى المستقبل كزمن مجرد إنما كواقع تربوي تنموي مُقبل ينبغي استكشاف كنهه والتحكم في أشكاله. لذلك سنتناول هذه الدراسة من خلال عنصرين:
يُشكِّل العنصر الأول مرحلة المراجعة والتقويم أو الاستيعاب إشارة إلى الدعوة لاستيعاب معوقات الواقع التربوي والتنموي الراحل في تفاعله مع الوحي والعقل الجزائري، ويشكِّل العنصر الثاني مرحلة التحريك إشارة إلى مرحلة تصور الواقع التربوي والتنموي المقبل في تفاعله مع الوحي والعقل الجزائري.

المبحث الثاني معوقات المشروع النهضوي الجزائري ومرحلة الاستيعاب:

إن استيعاب معوقات المشروع النهضوي الجزائري هو استيعاب لتاريخ هذا المشروع وتاريخ هذا الأخير هو تاريخ العقل الجزائري والتفاعل بينه وبين السياسات التجريبية منذ نشوء الدولة الجزائرية القطرية؛ هو تاريخ طرق حل المشكلات التي تميزت بأنها واقعية عملية ونظرية على السواء، إنه تاريخ تنامي البنية الاجتماعية وحدودها ومسلماتها وآفاقها المستقبلية(التي تشكل الحاضر بالنسبة إلينا)، إنه تاريخ تطور الموقف الجزائري بإمكاناته الاجتماعية والنفسية من التحديات الاستعمارية.

وكل هذا التاريخ لا يمكن لدراسة أو مقال متواضع أن يستقريه، ولكن تصورنا لأهم المحطات والمحددات التاريخية التي كان لها الدور الكبير في صنع الحاضر بالنسبة إلينا يخفف من وطأة تلك التساؤلات الكثيرة عن كل لحظة من لحظات تاريخ المشروع النهضوي الجزائري.

وإذا تساءلنا عن أهم محدد(المحدد الأول) في تاريخ المشروع المهضوي الجزائري، كان الجواب هو المشروع الفكري الإصلاحي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فما المعوقات التي صادفتها، وما كان مشروعها النهضوي التربوي والتنموي آنذاك؟

لم تأت الإصلاحات التربوية والتنموية لبعض رواد الإصلاح في الجزائر قبل جهود جمعية العلماء إلاّ كرد فعل محدود التأثير على السياسات الاستعمارية الهمجية، أضف إلى ذلك تركيبها الانتقائي التوفيقي؛ إذ لم تستطع هذه الإصلاحات التربوية التنموية أن تسيطر على نتائج إصلاحاتها في واقع جزائري تتقاذفه الفتن الداخلية والخارجية، والضعف والشلل التام على مستوى المجتمع الجزائري، وفي واقعٍ تعرض كذلك لهجمة استعمارية لم يشهد لها التاريخ مثيلا أرادت استئصال هذه الأمة و مسْخ عقيدتها.

ولم تستطع هذه الإصلاحات التربوية والتنموية الجزائرية أنّ تقدم -لانتقائيتها وتوفيقيتها- ردًا كليا على التدهور، بل ظلت تتناول الجوانب كلا على حدة بطريقة مجزأة دون اتخاذ منهج للرد الكلي، ودون التنقيص من قيمة تلك الإصلاحات التربوية والتنموية.

هذا على صعيد الإطار العام لحركة هذه الإصلاحات، أما على صعيد الإنتاج المعرفي فلم يتعدَّ الأمر المحافظة على بعض كتب التراث الجزائري في الصحراء الجزائرية، إضافة إلى توزع كتاتيب حفظ القرآن هنا وهناك، لذلك لم يُلمس أي تحول نوعي على مستوى الإصلاح التربوي أو التنموي، يجعله قادرا على التحرر من الاستعمار الغاشم، إذ حافظ الإصلاح

التربوي والتنموي في أرقى لحظاته على طبيعة دفاعية ترمم الواقع وتساير الاختيارات الاستعمارية في البناء والتطور، وما جلبته من دمار وخراب للواقع الجزائري.

إذا نظرنا إلى الجهد التحريكي الذي قامت به جمعية العلماء، نظرنا إلى ذلك البعد الحركي والتنظيمي الذي دفع النهضة الجزائرية خطوات إلى الأمام، حيث استطاعت جمعية العلماء أن تفصل في كثير من القضايا المستجدة آنذاك الناتجة عن صدمة الغرب، كما وضعت آليات عمل لنهضة الجزائر، ولعل فكرة التنظيم والعمل الجماعي هي الفكرة الأنسب لما لها من فاعلية في مجابهة الظاهرة الاستعمارية المعقدة ذات البعد التربوي والاقتصادي والاجتماعي.

وقد تجلت واضحا فكرة التنظيم في فكر العلامة ابن باديس حيث قال عنها:" ...إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله، إذا كانت لهم جماعة تفكر وتدبر وتتشاور وتتآزر، لجلب المصلحة ولدفع المضرة متساندة في العمل عن فكر وعزيمة..." [1].

ومن هنا نشأت الصحافة الإصلاحية وتأسست النوادي ونبتت المدارس الحرة ومساجد الوعظ والإرشاد في كثير من القرى الجزائرية ومدنها، وكان ابن باديس هو العصب المحرك لهذه الحركة بشخصه وقلمه ولسانه وتلاميذه وسمعته[1].

كما استلهمت جهود جمعية العلماء الكثير من التجارب الإصلاحية لرواد الإصلاح في العالم العربي مثل جهود محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ورشيد رضا، حيث دمجت هذه الجهود في عقول رجالات النهضة الجزائرية فكيفوها مع الواقع التربوي والتنموي الجزائري بمعطياته المختلفة عن الواقع العربي في كثير من الخصوصيات التربوية والتنموية بفعل اختلاف عمق الفعل الاستعماري بينها؛ إذ يقول محمد الهادي الحسني إن الواقع التربوي الجزائري في العاصمة وحدها لحظة دخول المستعمر كان يحوي بعض مئات من المدارس، ولكن بعد خروجه مدحورا خلف وراءه مدرستين فقط !

كما لم يبق مشروع جمعية العلماء فكرة نظرية، بل حولتها إلى فكرة عملية بالنزول إلى الميدان، والتبشير بها من خلال نشاطاتها التعليمية والدعوية في مختلف المؤسسات التي أنشأتها.

ولم يكن موقف الجمعية سهلا، فقد كانوا يمشون على البيض كما يقول المثل، فهم من جهة كانوا يريدون تحقيق مبادئهم و أهدافهم بأية وسيلة مشروعة، ومن جهة أخرى كانوا واقعين تحت طائلة إجراءات استثنائية مستعدة لعرقلة سيرهم، بل لوضعهم في قفص الاتهام، لذلك كانوا يناورون ما وسعتهم الحيلة والمناورة، ويجاملون ولكنهم لا يتنازلون عن مبادئهم[1].

ومن العوائق التي صادفها العلماء فكر المرابطين ورجال الزوايا الذين ظلوا على عقائدهم القديمة وفي عزلة من تقلبات العصر وتجدد الفكر الإنساني، وقد ساعد عائق آخر وهو رجال السلطة الفرنسية على خلق التوتر بين الفريقين، لأن مصالح المستعمر لم تكن مع فريق الإصلاح، وكما اصطدم العلماء مع المرابطين اصطدموا أيضا بخريجي المدارس الفرنسية وبالنواب، لأنهم كانوا ينظرون إلى العلماء على أنهم رجال دين أكثر منهم رجال ثقافة[1].

لم تكن جمعية العلماء وحدها في الساحة بل ظهرت في الجزائر عدة منظمات شباب وطلبة وكشافة، ولكننا سنركز على المشاريع الكبرى فقط لأن لها الفضل الكبير في ذلك الدفع التحريكي العظيم الذي حرر الأمة الجزائرية، ومن هذه المشاريع الكبيرة جهود الأستاذ مالك بن نبي، حيث كان لجهوده الدفع التحريكي الحقيقي للمشروع النهضوي الجزائري، حيث ركز مالك بن نبي على مشكلة الحضارة فأعطى بذلك دفعا فكريا قويا لكل صاحب مشروع تربوي وتنموي فقد بوصلة الاتجاه؛ فلم تكن جهود مالك بن نبي الإصلاحية جوابا على صدمة الحضارة الأوروبية ولا تبشيرا أو محاكاة لنموذج سابق، ولا تجذيرا راديكاليا سياسيا للسلفية الإصلاحية، إنما كانت جهود مالك بن نبي من الناحية الفلسفية نتاج العقل الجزائري الحر المستقل عن كل ولاء أو خضوع لأي هيئة أو حزب كان، حيث تركز اهتمام مالك بن نبي على ذات الإصلاح ومنهجه وخصائصه الاجتماعية وشروطه، ولم تكن إرادة مجهوداته النهضوية من أجل الهيمنة أو التسلط، بل كان رهانها الأكبر هو الدفع بالمشروع النهضوي الجزائري من جديد.

فقد طرح مالك بن نبي مشكلة الأمة في هذا السياق، عندما أكد بأن مشكلة الإنسان عموما هي مشكلة الحضارة[1]، وأي تفكير في حل أزمات الإنسان لا يستوعب هذه الحقيقة فحضوره على مسرح التاريخ كالمعدوم، فلا هي مشكلة سياسية بالأساس، ولا هي عقدية أو أخلاقية، وإنما حضارية تشمل كل هذه العناصر، ووضح فيلسوفنا ذلك بمعادلة ثلاثية الأبعاد؛ تستوجب حل ثلاث مشكلات رئيسية:

- مشكلة الإنسان وتحديد الشروط لانسجامه مع سير التاريخ.
- مشكلة التراب وشروط استغلاله في العملية الاجتماعية.

مشكلة الوقت وبث معناه في روح المجتمع ونفسية الفرد[1].

وتأتي أهمية العناية بفكر الاستيعاب عند مالك بن نبي:

- من كونه أولا: المحاولة العلمية الجادة في مجال المراجعة والتقويم لمسيرة الحضارة، فقد وفق رحمه الله في تقديم مراجعة هامة، وتقويم موضوعي جرئ لحركة الحضارة الإسلامية، لم تنل من مصداقيته السنون الطوال، بل زادت الكثير من آرائه وأطروحاته تأكدا وبروزا، ولفتت أنظار المهتمين بمستقبل الأمة[1].
- ومن كونه ثانيا: وُفق في رسم الإطار الصحيح لقضية المشروع النهضوي التربوي والتنموي، وتحديد كثير من شروطه.
- ومن كونه ثالثا: التصور الجدلي السليم لتفاعل الفكرة الدينية والعقل والواقع.

ولهذا لم يترك الله تعالى الكون لتعبث فيه قوى الباطل، فهذا وعد الله تعالى حيث قال: [بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ]« الأنبياء، آية 18 »، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[1].

فلقد هيأ الله تعالى للمشروع النهضوي الجزائري كل أسبابه، وبتقدير دقيق وحكمة كونية شاملة، حيث هيأ التاريخ و الاقتصاد...، فتحررت الجزائر من دنس الاستعمار بفضله

تعالى ومنته، وبدأ الشعب معركته الجديدة مع واقع مغاير لما كان عليه الوضع في السابق، ونظرة بسيطة إلى واقعنا المعاصر ومعادلاته الجديدة على جميع الأصعدة نستشف بها آفاق تفاعل هذا الواقع الجزائري مع الوحي والعقل.

نظرة إلى واقع التربية والتنمية الجزائري المعاصر ومعوقاته:

تعد دراسة الواقع الإنساني عموما، و الواقع التربوي والتنموي الجزائري خصوصا، من أعقد الدراسات وأعسرها، وهذا لطبيعة ذلك الواقع وتداخل معطياته وخيوطه وظواهره، وتسارع أحداثه وقضاياه ونوازله، لذلك فإن فهمه يعد أمرا مهما جدا في مشروع النهضة، إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره كما يقول أهل العلم، وكلما كان الفهم لطبيعة ذلك الواقع قريبا من الصواب، كان مشروع النهضة الجزائري وتحقق مراميه ومقاصده كذلك.

و من هنا عبَّرنا عن مشروع النهضة الجزائري بأنها عملية ترقية واقع العلاقات التربوية والتنموية من خلال تفاعله مع جدل المرجعية العليا و كذا جدل العقل.

وما يهمنا هو تفاعل هذا الواقع التربوي والتنموي الجزائري مع الوحي والعقل على ثلاثة أصعدة وقعت فيها تغيرات جذرية، أفقدت المشروع النهضوي الجزائري تماسكه الكياني؛ فعلى الصعيد الفكري دخل العالم بأسره في مـأزق فكـري وحضاري بما في ذلك الحضارة الغربية، وهذا بعد تكريس البعد المنهجي في التفكير من بعد تطور جديد للعقل الإنساني، فإذا نظرنا إلى الواقع التربوي والتنموي الجزائري وجدنا أنّ عقلية مجتمعه ما زالت تحت وطأة العقلية الثنائية التقابلية الممزوجة بالعقلية التجزيئية، لذلك لا تجد نفسها -أي المجتمع الجزائري- في حالة معاناة لافتقارها للمنهجية، وهذا ما يجعلها تكتفي بتنمية الأعراف والتقاليد في أحسن الحالات.

أما على الصعيد التعليمي: فما نلاحظه هو اتجاه الدولة الجزائرية نحو البدائل الغربية في نظمها التعليمية، مثل إتباع نظام نيل الشهادات المختلفة، بالإضافة إلى تبني البرامج التعليمية الغربية في جل المواد، وخاصة المواد المتعلقة بالجانب التقني والتكنولوجي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى التغييرات المفاجئة من دون تخطيط استراتيجي للبرامج التعليمية، وعدم مراعاة تأثير هذه التغييرات على الجانب الاجتماعي، كإحالة كثير من الشباب على التقاعد القسري، وما يصحب هذا الأمر من أمراض نفسية واجتماعية تؤثر على واقع التربية والتنمية.

أما صعيد الفعل الفلسفي: فلا نجد أثرا لذلك على أرض الواقع التربوي والتنموي الجزائري؛ حيث يتربى الطفل الجزائري على اجترار المعلومات أو تقبل رأي الآباء من دون نقاش، لغرض نيل الرضا، من دون اهتمام بالوظيفة الفلسفية للتربية التي تنمي العقل الاستشكالي الباحث عن الحلول لإشكاليات الواقع وتحدياته، فلا نجد ذلك الهم الفلسفي عند أطفالنا ولا عند شبابنا ولا حتى عند بعض باحثينا، وقد طغت عليهم هموم الواقع المعيش.

غير أن ثمَّة ما يدعو إلى القول أنّ هذه التغييرات على مستوى هذه الأصعدة، زلزلت الواقع التربوي والتنموي الجزائري زلزالا عنيفا لا يمكن أن يبقى معه ذلك الواقع المأزوم الذي ينتظر من يُنظِّر ويشرع له، ويعطي له الأدوية الفلسفية الشافية، وسيظل الله تعالى مع هذا

الواقع الجزائري إلى أن يكتشف مصلحوه بالتجربة العملية أن تبنيِّ هذا الواقع لاختيارات منهجية التربية والتنمية الغربية، لن يؤدي إلاّ إلى إضعافه والقضاء عليه، كل ذلك يتطلب البحث في مكامن التوجه نحو المشروع النهضوي الجزائري الجديد.

مكامن التوجه نحو المشروع النهضوي الجزائري:

لن يتحرك صاحب المشروع النهضوي الجزائري من فراغ وقد استوعب واقع المشروع النهضوي السابق، بما له وما عليه، وتعرف على كيفية تركيب واقع المجتمع الجزائري، وتفاعل ذلك الواقع مع الوحي والعقل، وكذا الكيفية التي تحرك بها واتجه من خلالها إلى غائية معينة حكمت وتحكم مساره.

لذلك من حق صاحب ذلك المشروع أن يتنبأ ويستشِّف مستقبل هذه الأمة، وقد علم محركات نموها منذ ماضيها الذي حكم تكوين حاضرها، و آفاق مستقبلها، فمعركة المشروع النهضوي الجزائري هي معركة الغيورين على هذا الوطن بالدرجة الأولى، وفي سياقها يتحدد البديل المنهجي للجزائر، ومن خلال العقلية العلمية التحليلية النقدية التي تتكون اليوم على الصعيد الفكري، سيكتشف صاحب مشروع النهضة البديل المنهجي في فكره الذي يخرج من رحم هذه الأمة، وإلا فبم ميز الله تعالى عقل محمد عبده أو الأفغاني أو الكواكبي أو غيرهم ليكونوا هم وحدهم رواد الإصلاح، ولماذا أصيبت نساء الجزائر عن إنجاب مفكرين نرجع إليهم، أو إنه الانبهار الأعمى فقط جعل المنظومة التربوية والتنموية تشكك في قدرة أبناء الجزائر على خلق مشروع نهضوي خلاق في بعديه التربوي والتنموي.

المبحث الثالث فلسفة الإصلاح التربوي ومرحلة الكشف:

يتميز الواقع التربوي والتنموي الجزائري الراهن بانشداده إلى المستقبل أكثر من انشداده إلى الماضي، بالنظر إلى المعطيات والحوادث التي طرأت عليه في شكل معوقات جديدة، وبالتالي فالعناصر الفاعلة فيه هي التي لها علاقة بالمستقبل.

و إذا كان المستقبل لا ينشأ من فراغ، وإنما تتحدد معالمه وتتبلور أشكاله من خلال تطور قضايا الواقع في تفاعلها مع الوحي والعقل؛ فالتطوير المستقبلي للمشروع النهضوي في بعديه التربوي والتنموي مرهون بتغير هذا التفاعل مصداقا لقوله تعالى: [**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**] « الرعد، آية 11».

أي أن الله تعالى لا يغيِّر فكر قوم إلاّ إذا غيَّروا طرائق تفكيرهم ومناهجه، ولأن واقع المشروع النهضوي هو محصلة تطور تاريخي طويل تفهم تجليَّاته من خلال تحليل حقب التاريخ السابقة له، والمحددات التي كان لها الأثر في ذلك؛ فإن تصور الواقع التربوي والتنموي المقبل في تفاعله مع الوحي والعقل الجزائري يجب أن يرتكز على محددات فاعلة تنتمي إلى المستقبل؛ فهي التي سيكون لها الأثر الحاسم في التحولات المستقبلية من دون إغفال لمحددات الماضي.

محددان رئيسيان هما اللذان سيكون لهما الدور الحاسم في تشكيل تصور الواقع التربوي والتنموي المقبل في تفاعله مع الوحي والعقل الجزائري، فهناك من جهة التطورات العلمية المعاصرة في شتى المجالات، وهناك من جهة ثانية التخطيط الاستراتيجي.

فهذان المحددان إذ يحددان محركات التربية والتنمية في المشروع النهضوي الجزائري(من زاوية تصور الواقع التربوي والتنموي المقبل في تفاعله مع الوحي و العقل الجزائري) و يؤطران حركته التاريخية في المستقبل المنظور، فهما يرسمان في الوقت نفسه الآفاق التي يجب أن يتجه إليها المشروع النهضوي من أجل بناء المستقبل، وذلك لأن مشروع النهضة لا يتساءل فقط عما يكون عليه المستقبل باعتبار بنية الأحداث والاتجاهات التاريخية فحسب، بل عما يريد-هذا المشروع- أن يكون عليه هذا المستقبل.

غير أنّه يجب التنبيه إلى أن مستقبل المشروع النهضوي ليس خارجا عن مجال الإرادة الجزائرية للإصلاح التربوي والتنموي، وبالشكل الذي ينبغي أن يكون، فالمعطيان المذكوران يحددان الاتجاه العام الذي يسير عليه الإصلاح التربوي والتنموي، ولكنهما لا يحددان لا سرعة السير ولا نتائجه، وبالتالي فهناك مجال واسع للإرادة الجزائرية الجبارة التي تدفع الجهود إلى الأمام من أجل آفاق أفسح وأوسع، فمشروع النهضة الجزائري قدرة وإرادة.

المحدد الأول: التطور العلمي المستقبلي:

لقد صنع إنسان هذا العصر عالما يغص بالاحتمالات والتوقعات واللايقين، إلى درجة أصبح معها يخشى النجاح قدر ما يخشى الفشل، إنه عصر حثيث الخطى فما إن يظهر مذهب فكري أو نظام اجتماعي سرعان ما يلحق به ما ينقضه أو ينفيه[1]، وهكذا هو إنسان هذا العصر فبمجرد أن يجد نظرية علمية يهرع لبناء نظام فلسفي كوني على أساسها، وحين يعثر على نظرية أخرى مخالفة و أكثر تطورا فإنه سرعان ما ينقض الأولى[1].

والمهم في هذا التطور العلمي هو مستقبله من ناحية المنهج، حيث أن إطار هذا المنهج: هو دخول العقل الإنساني طورا جديدا من التفكير، حيث سيبدأ بالبحث لا في وحدة الظاهرات الطبيعية ووحدة المادة والطاقة واستخلاص القوانين العلمية، بل سيمضي لأبعد من هذا، ويمكن أن نقول بواسطة الاستشفاف الاحتمالي[1] أنّ العقل الإنساني سيخرج من الحالة الوصفية للقوانين، إلى تفسيرها كونيا باتجاه التنظير، أو استخلاص النظريات التي تشكل في النهاية منهجا موجها لمختلف الأفكار والإبداعات في مختلف الحقول، واضعين بعدا زمنيا لآفاقنا وهو المستقبل البعيد الذي يتراوح بين عشرين عاما إلى نصف قرن[1].

أما مضمون هذا المنهج: فهو التعامل الحركي مع النظريات العلمية أي البحث في: كيفية تقدمها وعوامل هذا التقدم، ودرجته، تكريسا لمنطق التقدم، إذ سيأخذ النشاط الذهني بُعدا صارما ويستوجب عليه –أي النشاط الذهني- أمام كل قضية أن يعالجها معالجة نقدية وتحليلية وتركيبية، وستبرز أنماط في النقد والتحليل وإعادة التركيب وفي شتى الحقول العلمية[1]، ولربما بتنبؤ معياري[1] فهذا المنهج سيتعامل مع الزمن بصورة مرنة، إذ يرى التاريخ من منظور الحاضر ويحاصر المستقبل بنماذجه وبدائل احتمالاته وهذا ما سيؤدي إلى إعادة تشكيل المفاهيم وإعادة صياغة العلاقات وبناء النظم، ومن هذه البدائل:

- نهاية المدرس: ويقصد بها أن التوسع في استخدام تكنولوجيا التعليم من برامج تعليمية ونظم آلية لتأليف المناهج وتقييم أداء الطلبة، وانتشار مواقع التعلُّم الذاتي عبر الانترنيت، سيؤديان في نهاية الأمر إلى الاستغناء عن المدرس.

- نهاية الذاكرة ويقصد بها أن الإنسان سيستغني عن ذاكرته الطبيعية مستبدلا بها وسائل تخزين البيانات الإلكترونية –القرص المرن، و القرص المضغوط-، وستتيح تكنولوجيا المعلومات وسائل عديدة لتنمية قدرات هذه الذاكرة، ولربما يصل طموح علماء تكنولوجيا المخ إلى البحث في إمكان تعزيزها بذاكرة اصطناعية[1].

هذا جزء مما ستفرضه الحضارة العالمية الراهنة على العالم، وهو منهجها أو وعيها العلمي الجديد للوجود وللحركة الكونية، وهو وعي مفارق لوعي الجزائري في واقعه بالذات، ليس على صعيد المعلومات العلمية ولكن بدرجة أولى على صعيد التصور والمنهج. إذا ألقينا نظرة إلى واقعنا الجزائري في تمَّثله لنظام العلم أدركنا أن العلم في العقلية الجزائرية المعاصرة هو مجرد مادة إخبارية أو معلوماتية قائمة بذاتها بلا زمان و لا مكان، وبلا خلفية اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، سواء كان ذلك في العلوم الإنسانية أو في العلوم الطبيعية، لذلك كانت السمة الغالبة على مفكرينا المعاصرين، أنهم يحملون علوم القرن الواحد و العشرين للميلاد بمنطق القرن الثامن للميلاد، صحيح أن أدوات العلم المعاصر ومنجزاته التكنولوجية تُستخدم الآن وتُستخدم مستقبلا على نطاق أوسع ، لكنها تُستخدم لغاية عصْرنة الماضي، فما نتناوله اليوم ولربما غدا من الشأن النهضوي، لا يخرج عن دائرة ما يفرضه علينا وعلى العالم كله نموذج النهضة الغربي.

إن رؤيتنا اليوم تتبنى المنهج الدفاعي، و ذلك حين تحاول من جهة احتواء النماذج العالمية للدراسات المستقبلية وذلك بنمذجة المحاكاة[1] ، ومن جهة أخرى حين تتجاهل أن جوهر المشروع النهضوي في بعديه التربوي والتنموي ليس تقنيات قضائية تحاصر الإنسان بين حدي الحلال والحرام، وتطبيق العقوبات الشرعية وعدم تطبيقها، بقدر ما هو اقتحام المستقبل بنظرة تحليلية نقدية للإنتاج المعرفي، وحكمة اكتشافية لوحينا، وكل هذا تخطيطا لمستقبل واقعنا، فإذا أدركنا أننا لم نصنع هذه الثورة العلمية المعاصرة من داخلنا، ولهذا لم نتفاعل بها فكريا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا فلنا أن نتساءل: كيف ينبغي علينا أن نصلح واقعنا التربوي والتنموي لنفعل ما ينبغي علينا فعله؟.

والقضية أكبر من إصلاح واقعنا التعليمي وأكبر من التحدث بلغة عصرية عن موضوعات قديمة وأكبر...وأكبر...الخ، ولقد هيأ الله الأمر، وجهزه بكافة وسائله، وما علينا سوى مشروع نهضوي لندخل به آفاق المستقبل عبر محدد التخطيط والذي نتنبأ أننا إذا استوفيناه خضنا معترك التدافع الحضاري بضمانات أكيدة في النجاح.

المحدد الثاني:محور التخطيط في بناء المشاريع:

أ- التخطيط لغة:

جاء في تاج العروس أن الخّط الطريقة المستطيلة في الشيء، وقيل هو الطريق الخفيف في السهل ومن المجاز الخط ضد الحط وهو الأكل القليل و بالحاء الكثير كالتخطيط [(1)]، و التخطيط التسطير، نقول خططت عليه ذنوبه أي سطرت[(1)].

ب- التخطيط اصطلاحا:

عُرِّف التخطيط عدة تعريفات نذكر منها اثنين فقط نرى أنهما يفيان بالغرض:

عُرِّف التخطيط بأنه: «الروح العلمية التي قوامها دراسة الأشياء لمعرفة قوانينها بغية التأثير فيها وفي مجراها»[(1)].

و عرِّف أيضا أنه: «أسلوب للتفكير في المستقبل واستعراض حاجيات ومتطلبات هذا المستقبل وظروفه حتى يمكن ضبط التصرفات الحالية بما يكفل تحقيق الأهداف المقررة»[(1)].

و يمكن الاستنتاج من هذين التعريفين عدة قضايا مهمة تخدم موضوعنا نعبر عنها بما يأتي:

* أسلوب مضبوط في التفكير و النظر.
* التأثير في مجرى الأحداث بعد معرفة حقائقها.
* توقع لظروف مستقبلية استعدادا لمواجهتها وتلبية لحاجاتها.
* بناء التصرفات الميدانية على أساس ذلك.
* ضمان تحقيق الأهداف بنسبة كبيرة من النجاح.

وعلى هذا فالمعنى الاصطلاحي للتخطيط الذي نعتمده هو: **الجهد الفكري المنظم، القائم على أساس دراسة الواقع التربوي والتنموي حالات وحاجات قصد التأثير فيه إيجابيا، وتغييره.**

ولسنا في حاجة إلى الاستدلال على مشروعية التخطيط، لأن ذلك أمر بدهي لا يخلو منه سلوك الإنسان العاقل.

و إذا كان التخطيط من المفاهيم الأساسية التي تحظى باهتمام زائد في كافة أنحاء العالم -بدرجة أو بأخرى- في مسلسل التطور العلمي المستقبلي، فإن إيماننا بهذا المفهوم يجب أن يكون مقرونا بالعمل الذي يجب أن يؤديه هذا التخطيط، وهو بناء المشاريع التربوية المستقبلية التي تدفع الإصلاح التربوي والتنموي إلى آفاق فسيحة، لذلك لابد من تصور مجموعة من الضوابط التخطيطية في بناء المشاريع التي تضبط المشروع النهضوي الجزائري في هذا المجال وتحدد مساره المستقبلي، و هذه الضوابط التخطيطية هي كالآتي:

- **دراسة الحالة:** إذا كانت الخطة في حد ذاتها مشروعا عمليا يهدف إلى التأثير الإيجابي في واقع معين قصد فهمه و تغييره للوصول إلى تصور لواقع مقبل أكثر رقيا و ازدهارا، فإن من شروط ضمان هذا التأثير وذلك التصور المعرفة الدقيقة والشاملة بهذا الواقع الراهن، إذ لا نستطيع أن نغيِّر واقعا نجهله، فالمفكر الجزائري يجب عليه أن يتحرك باستمرار وهو مصحوب بخريطة دقيقة للأوضاع النفسية والفكرية والاجتماعية للأفراد

والجماعات الإنسانية، تسمح له بالتنبؤ بما سيحدث في المستقبل زمانا ومكانا وكيفية، حيث يمكن الارتكاز على أسس ثلاث هي كالآتي:

- **التنبؤ بتسخير السنن الثابتة النفسية والاجتماعية** : إن السنن هي قوانين ثابتة لا تتغير[1] فإنها كما حكمت الماضي فستحكم المستقبل، ومن ثمة يمكن تسخير هذه السنن لأجل معرفة ماذا سيحدث في المستقبل، ومثاله على مجتمع انتشر فيه الظلم أن تنطبق عليه السنن الإلهية التي تقول أن الظلم مؤذن بخراب العمران[1]، قال تعالى: [**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**] « النمل، آية 52».
- **التنبؤ باستصحاب الظروف العامة**: التنبؤ للمستقبل يمكن أن يعتمد على استصحاب الظروف الاجتماعية والنفسية والسياسية والاقتصادية، وغيرها من الظروف التي من شأنها عدم التغير السريع أو المفاجئ، والتي ستصاحب المجتمع في المستقبل القريب أو المتوسط[1] على الأقل، ولا يمكن تغييرها في شهور أو أيام، لذلك فإن استصحاب هذه الظروف العامة وسحبها على المستقبل يساعدنا على التنبؤ الجيِّد للمسائل المختلفة، وخاصة المتعلقة بالمجال التربوي والتنموي إذ يمكننا التنبؤ بارتفاع نسبة المربين في تخصص معين في زمان ما، ونمو واضمحلال التخصصات العلمية، والمسارات المتغيرة لمستقبل المربين، احتياج ومتطلبات التربية والتنمية من حيث هو مؤسسات...الخ.
- **التنبؤ باعتبار الملابسات الخاصة بطيئة التغير**: التنبؤ يمكن أن يعتمد على اعتبار الملابسات الخاصة التي من شأنها بطء التغير، كالتنبؤ بشكل تصورات المربين ومفاهيمهم، جذورها وأصولها الواقعية،كيف ستكون وهل يدعمها المجتمع أو لا؟، وبالتالي التنبؤ بسلوكات هؤلاء المربين والتنمويين ومواقفهم التي ستصدر عنهم بناء على الأوصاف المعروفة عنهم مسبقا.

- **تحديد الهدف**: لا شك أن المعرفة السليمة للواقع الجزائري في بعديه التربوي والتنموي تساعدنا على ضبط عدة قضايا في المشروع العملي نسجلها كالآتي:

+ العناصر العامة و التفصيلية المكونة لذلك الواقع.
+ عوامل التأثير فيه سلبا و إيجابا.
+ عوامل الضعف أو القوة فيه.
+ أسباب المرض و تنبؤ العلاج الممكن.

فالحصول على كل هذه المعلومات يعيننا عن الإجابة على سؤال مهم هو: ما الحاجات التي ينتظر منا الواقع توفيرها له للتمكن من تغييره إيجابيا، حسب أهداف محددة نتصور من خلال تحققها في ذلك الواقع الجزائري المقبل في تفاعله مع الوحي و العقل.

ولنبدأ بإعطاء مفهوم الهدف:

- **لغة**: جاء في لسان العرب أن الهدف «هو الغرض، و يسمى القرطاس هدفا و غرضا»[1] .

● **اصطلاحا**: «هو رغبة يسعى الفرد أو المجتمع إلى تحقيقها ،وقد يتراوح الهدف من كونه عاما شاملا ،وعلى درجة عليا من التجريد إلى كونه محددا بسيطا ويمثل سلوكا ماديا ملاحظا» [1].

إذا نظرنا إلى التعريف السابق نجد أن الحاجة هي النقطة المركزية التي تدور حولها كل الجهود العلمية العملية لتصل إليها، ولعل السر في اختلاف المربين والتنمويين سواء على مستوى تصور الواقع المقبل في تفاعله مع الوحي والعقل، أو على مستوى المناهج العلمية التي نواجه بها واقعنا، يعود إلى صعوبة تحديد الحاجة أو بتعبير أدق: ماذا يحتاج ذلك الواقع التربوي والتنموي الذي نتصوره عندما نريد أن نتحرك في إطاره؟، لنحدد بعد ذلك المناهج العلمية أو التصرفات الإيجابية في هذا الواقع.

و لا يكفي أن يتضمن المشروع –أي مشروع- أهدافا بل يجب أن يكون الهدف محددا وواضحا لنتمكن من تصور الواقع، ومن ثمّ توجيهه نحو الوجهة البناءة والمنظمة، ولنتمكن كذلك من تحديد الشروط الإيجابية التي تساعد على حدوث التغيير الإيجابي المطلوب إنجازه من طرف المشروع المقترح.

و بناءً على ما سبق، يمكن القول أنه لا يُكتب لأي مشروع نهضوي مستقبلي النجاح إذا لم يكن على مستوى عالٍ من الإدراك الدقيق لمطالبه، قبل الشروع في برمجة سلسلة الإجراءات التي سيواجه بها ذلك الواقع المستقبلي.

وهنا دور الإرادة الجزائرية الفذة التي تمتاز بصناعة المخططات ولديها التصور لتطور تلك المخططات، والتصور للعقبات والإدراك للمتطلبات، وحديثنا لا يشمل الذي يركن دوما إلى تقليد نموذج جاهز غارق في جزئياته لا يستطيع الخروج منها، ولا يستطيع أن يمارس غير عملية النقل، فيركن إما إلى نموذج السلف يحتمي به ويفر إليه من واقعه، وإما أن يسرق من أسياده المخططات فيصبح بذلك مسلوب القدرة لا يستطيع تفّهم الماضي، ولا يستطيع الغوص و لا حتى مجرد التخمين فيما يمكن أن يكون عليه المشروع النهضوي مستقبلا، ولهذا يجب تدريب المربين على اكتساب الأدوات و التقنيات العلمية و العملية التي تمكنهم من الضبط الدقيق للأهداف[1].

- **اختيار الوسائل وأدوات التنفيذ**: عندما نستطيع تحديد ما نريد يمكن لنا أن نحدد كيف نحقق ما نريد، فمشكلة الوسائل أو الأدوات مرتبطة أساسا بالأهداف والغايات، فهذه الأخيرة هي التي تحدد الطريق إليها أو على الأقل تحدد المعالم الأولية لذلك، وكما أن الأهداف ينبغي أن تكون على درجة كبيرة من الوضوح والدقة، فإن الوسائل ينبغي أن تكون أيضا على درجة كبيرة من الكفاءة، أي الانسجام مع الأهداف من جهة، والمعطيات الواقعية من جهة أخرى.

إن عبارة "كيف" هي المنطلق في البحث عن الوسائل المناسبة لتحقيق الهدف، وبطرحنا لهذا السؤال فإن الاهتمام سيوجه إلى طرائق وأساليب وأدوات التنفيذ، ويتمثل ذلك في وضع منظومة تنفيذية تبين وسائل تحقيق الأهداف، وذلك في شكل خطة عمل تنفيذية

واضحة، ثم نقوم بترتيب الوسائل التنفيذية مع توضيح مزايا كل وسيلة، و يمكن وضع ضوابط عامة يجب مراعاتها عند التفكير في وضع الوسائل:

* أن تكون الوسيلة ملائمة لطاقة الجهاز المنفذ للمشروع و ظروف الواقع.
* أن تكون مرنة قابلة للتطوير و التجديد عند تغير المعطيات المكانية و الزمانية[1].
* أن تكون واقعية حيث تضع المعوقات في الحسبان[1].

- **ضبط مراحل الإنجاز و كيفياته:** و نعني بتلك الكيفية التي يتم عن طريقها تنفيذ المشروع، فيتم تصورها على الأقل على المستوى النظري، ويستحسن أن نشير هنا ولو بشكل بسيط إلى ضابطين يعينان الجهاز المنفذ للمشروع على التنفيذ السليم:

+ المتابعة المستمرة لعملية التنفيذ إلى غاية انتهائه.
+ مراعاة سلم الأولويات الأهم ثم المهم وهكذا.

و نظرا لكون التخطيط المنهجي الدقيق من أقوى العوامل المعينة على اكتساب المهارة في التفكير، فإنه من دون التخطيط يصبح المشروع النهضوي غير محقق لأهدافه، وبالتالي لا مجال للقول بآفاق مستقبلية ولا مجال للقول أيضا بتصور واقع تربوي تنموي مقبل.

كل هذا الكلام عن العلم المستقبلي والتخطيط لا يقصد منه الاكتفاء بالتنظير والتحليق بعيدا عن جدلية الوحي والواقع التربوي والتنموي والعقل الجزائري؛ إذ على الجزائري التقيد بمنظومته الأخلاقية المعتمدة أساسا على المنطق العملي الذي يُقصد به استخراج ما يمكن من الفائدة من الوسائل المتاحة[1]، في ميدان العمل وليس في ميدان المنطق النظري، وهذا يعني كيفية ربط العمل بغاياته ووسائله[1]، مهما كانت بسيطة، لأن التاريخ يبدأ من مرحلة الواجبات المتواضعة الخاصة بكل يوم، وبكل ساعة، وبكل دقيقة، لا في معناها المعقد، كما يعقِّده عن قصد أولئك الذين يعطلون الجهود بكلمات جوفاء وشعارات كاذبة يعطِّلون بها التاريخ بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة على حد تعبير مالك بن نبي[1]، وهي نظرة صائبة إلى أقصى الحدود نجد مؤيداتها من تاريخ المشروع النهضوي الجزائري.

هذا الأمر نبَّه إليه رسولنا الأكرم صلى الله عليه وسلم في كثير من أحاديثه الشريفة فهو يقول: « لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسئل عن خمس :عن عُمْره فيم أفناه و عن شبابه فيم أبلاه ، وماله من أين اكتسبه و فيم أنفقه و ماذا عَمِل فيما عَلِم »[1]، منبِّها إلى هذه العناصر الحضارية في حياتنا وفي أعمالنا، والدور الأول ملقى على عاتق المربي والمنمي الذي هو مُلزم بأن ينظر إلى الأمور من زاويتها الإنسانية، حتى يدرك دوره الخاص في مجتمعه، ودوره في الإطار العالمي.

فإذا نظرنا إلى واقعنا الجزائري وجدنا أنه يعاني من اللافعالية، إذ يذهب قسم كبير من أعمالنا في العبث والمحاولات الهائلة، بسبب افتقادنا الضابط الذي يربط في حركتنا: بين عمل وهدفه، وبين سياسة ووسائلها، وبين فكرة وتحقيقها[1]، فإذا عالج المفكر الجزائري هذا الأمر وحاول تجسيد المنطق العملي في واقعنا السلوكي، فإنه من بين الحلول أو المعالجات التي تلوح في الأفق التربية المخططة بمراحلها، وكذا منهج الإقناع بهذا المنطق العملي لجميع فئات المجتمع الجزائري، وأيضا دراسة بدائل المستقبل من خلال مشاهد سلوكية، أو

تحليل لأزمات سلوكية، أو توقعات محتملة لها انطلاقا من دراسة تطورات الأوضاع الحاضرة، وهذا للتمكن من إجلاء الفعل والعمل اللازمان والحركة الواجبة، استعدادا لمواجهة هذا القابل المتأزم تربويا وتنمويا، لاحتوائه أو التخفيف من حدِّته مرحليا.

أما إذا اتجهنا إلى الواقع العالمي وعرفنا المآزق التربوية والتنموية التي يعانيها، أمكن القول أن هَيْبَةَ الأمة الجزائرية قد تكفُلها لها أحيانا منظومتها التربوية والتنموية، إذا ما تناغمت هذه المنظومة بمنطقها العملي مع المرحلة التي تجتازها الإنسانية، أو التي ستجتازها في المستقبل إذا تم طرح هذه المنظومة بمنطق عملي منهجي يُوضَح فيه:

* مرجعية هذه المنظومة، والأطر التي تشكلها.

* الآفاق المستقبلية لفلسفة هذه المنظومة.

والذي يبدو أن العالم أجمع يبحث اليوم عن فلسفات نهضوية جديدة لوضعه الراهن، والذي لا شك فيه أن المفكر الجزائري سيجد نفسه حيال هذا الأمر أمام إحدى مهماته العملية، التي تتطلب منه قسطا أوفر من الصفات، والسير في معالجة هذا الأمر يتطلب دراسة مرضية وأخرى علاجية، فإذا كانت الدراسة الأولى سهلة فإنه من الصعب تحديد الأخرى، لأن العلاج يتوقف نجاحه بدرجة أكبر على المريض نفسه(1)، وهو المجتمع الجزائري، فإذا ما أراد المفكر نجاح مشروعه النهضوي فإنّ عليه أولا طرحه بمنطق عملي منهجي، ثم المساهمة في تدريب المجتمع الجزائري عليه، وهما مهمتان مترابطتان ونتائجهما الاجتماعية والنفسية متلازمة.

ستَحمل هذه الدعوة لاستيعاب المعوقات، وتلك المهمة للكشف عن المحركات، وعيا حضاريا نهضويا يرقى على كل المظاهر الحضارية النهضوية الراهنة في علاقات الإنسان الجزائري بالمواضيع الحساسة، فما في الجزائر كله اليوم من منجزات حضارية، ليس سوى مقدمة لما سيأتي به الله على يد المشروع النهضوي الجديد، الذي يُولِّد إنسانا لا ينظر إلى الماضي، ولكن يتطلع إلى المستقبل بمقومات جديدة ورؤى جديدة، وضمن منهجية شاملة ينفتح فيها بكل قواه الإبداعية على حركة الحياة.

وِلادة هذا الإنسان الجزائري لا تأتي محكومة بمنهجية الصراع والأفق الضيِّق الذي يختزل الإنسان ما بين حدي الميلاد والموت، وإنما تأتي محكومة بمقاصد الحق والسلام، بمقاصد العدل والمساواة والحرية، بمقاصد التوحيد والتزكية والعمران، هذه المقاصد تجعل من ولادة هذا الإنسان ولادة متَّسعة الأبعاد، ولادة قوية كقوة الهم النهضوي للفكر الجزائري المعاصر، فهو ليس مجرد تحدٍّ جزائري، وإنما هو بعث عالمي سيظهره الله على العالم كله، وتفجير لكافة الإمكانيات المتهيئة في عقول مصلحي هذه الأمة عبر تفاعلها مع الوحي والواقع الجزائري.

وفي ختام هذا البحث نوجز أهم النتائج العامة له.

1. تبين لنا من خلال البحث وجود حاجة علمية و منهجية ملحة إلى ضرورة إعادة النظر في كيفية ممارسة المشروع النهضوي في العصر الراهن نظرا للنوازل و التحديات الجديدة المعقدة.

2. إن المشروع النهضوي لم يعد البتة بناءً مشيدا من المعرفة المثبتة تبحث علوم التربية والتنمية لتبريرها وتبرير مشروعيتها، بل المشروع النهضوي بالدرجة الأولى ممارسة فعلية، ومحيط فكري ونفسي واجتماعي يجعل الأمة كلها في حالة مخاض عسير للنهوض من جديد.
3. مع إعادة النظر في ممارسة المشروع النهضوي تتضح لنا الآفاق المستقبلية لهذه الممارسة على أنها استيعاب لما كانت عليه تلك الممارسة وفق محددات معينة انطلاقا من واقع هذه العلاقة في العصر الراهن، وكشف لما ستكون عليه هذه الممارسة مستقبلا وفق محددات واقعية معينة نستشف من خلالها ما سيكون عليه الوضع مستقبلا، حيث يجد كل مشروع نهضوي ماض أم حاضر أم مستقبل موقعه من قبل وموقعه من بعد، و لا يكون قيدا أو خروجا عن غيره من المشاريع النهضوية وهذا لأن الماضي يحكم تكوين الحاضر و آفاق المستقبل.